بالناس. جهنم هي حجرات انفرادية. جهنم هي السجن الانفرادي» (ص ١١٥).

ولكن ذلك لم يكن كل ما تعنيه جهنم بالنسبة الى نزيل السجن الاسرائيلي، بل كان هناك، أيضاً، انعدام الاحساس بالزمن، وفقدان الثقة بكل ما حوله، بنفسه وبأصدقائه وبعائلته وبالآتي الذي لا يعرف عنه شيئاً. وبالتالي، يصبح الهمّ الاساس للسجين ان يتغلّب على هذه العواصف التي تصطخب في داخله، وان يجد سبيلاً الى التغلّب على مشاعر الاحباط التي تفرضها معاملة سجّانيه اللاانسانية. وبالنسبة الى صلاح التعمري، كانت الخطة تتلخّص فيما يلي: «يجب ألّا تسمح لنفسك بالانجرار وراء معتقدات خاطئة. هذا لن يؤدي الّا الى تفوّق عدوّك، وبالتالي سيكون في مصلحته. ان عائلتك ليست وحدها في هذه المأساة، وأنت لست وحدك في هذه الحالة. الآلاف غيرك يواجهون وضعاً مشابهاً، وربما أسوأ. انك لست محتجزاً في زنزانة، بل أنت في رحم ستخرج منه أشد قوة وطهارة» (ص ١١٦).

وعلى الرغم من قسوة التجربة، وعذاب الوحدة والقلق والخوف من المصير المجهول، ولحظات الضعف الى حدّ التفكير بالانتحار للانتقام من جلّاديه، خرج صلاح التعمري من التجربة أشد صلابة، كما ذكرت زوجته بكل فخر واعتزاز. وفي معتقل أنصار، وجّه صلاح كل طاقاته المكبوتة طوال ثلاثة شهور من السجن الانفرادي، الى تنظيم وتعبئة آلاف المعتقلين معه. وتعاقبت المهمات والنشاطات، التي تحدث عنها التعمري باسهاب وتفصيل في رسائله الى زوجته، ناقلاً نماذج من الصمود الراسخ في المعتقل، أو كما أسماهم «أشجار السرو في أنصار»، واحدهم بالذات اطلق عليه لقب «سنديانة أنصار». استهدفت أولى مهمات التعمري تثبيت الحقوق الاساسية للمعتقلين، وأهمها الاعتراف بهم كبشر، لهم أسماء محدّدة، وليسوا مجرّد ارقام. وفي هذا المجال، كتب: «طالما ان الناس، هنا، لا يُعرفون الّا بالارقام، يتوجّب علينا الاستمرار في المقاومة. بدأنا بالاصرار على ان يُنادى علينا بالاسم. وسرعان ما تحوّلت الارقام عديمة الملامح الى وجوه من الاطباء والمحامين والمعلّمين والطلاب وأرباب العائلات ومختلف الفئات التي تشكّل تركيبة مجتمعنا خارج السجن والمعتقل» (ص ١٣٦ ـ ١٣٧). وسرعان ما تشكّلت لجنة رباعية، رأسها التعمري، أُطلق عليها اسم «لجنة الدفاع عن حقوق الأسرى»، لتتولّى معالجة مختلف القضايا داخل المعتقل، وتمثيل المعتقلين لدى السلطات الاسرائيلية ولجنة الصليب الاحمر الدولية.

ومع تبلور اطار محدّد وهيكل تنظيمي داخل المعتقل فرض نفسه على المسؤولين الاسرائيليين، بدأ هؤلاء، بدورهم، يغيّرون من أسلوب تعاملهم مع المعتقلين ونظرتهم اليهم. ومرة أخرى سجّل التعمري ملاحظاته في هذا المجال: «كنتيجة لتجربة أنصار، اعتقد بأن صورتنا كفلسطينيين وعرب بدأت تتخذ ابعاداً جديدة في نظرهم. كان بالامكان ان نلمس، لدى بعض الاسرائيليين الذين تعاملنا معهم خلال فترة الاعتقال، مدى احترامهم الكبير لنا... ولدى آخرين مدى الكره العميق، وكأنما كانوا يتمنّون لو اننا لم نوجد على وجه الارض اطلاقاً» (ص ١٣٩).

الى جانب الاوضاع الصحية السيئة لعدد كبير من المعتقلين، كانت هناك مشاكل الطلاب الذين خسروا سنة دراسية كاملة، والمدنيين الذين لم تكن لهم أية علاقة بالعمل العسكري، بالاضافة الى وجود افراد عديدين من عائلة واحدة (احياناً الاب وأبناؤه جميعاً) بكل ما يعنيه ذلك من بؤس وضنك وانقطاع موارد العيش عن النساء والاطفال الذين بقوا بدون معيل (جمع شمل العائلات على الطريقة الاسرائيلية، كما وصفها التعمري)، وتلاحقت الايام والشهور في المعتقل تحمل معها المفاجآت، والتحديات، وقدرة المعتقلين على ابتكار الاساليب المختلفة لتعزيز صمودهم، ووحدتهم، وقدرتهم على مواجهة أيام الاعتقال الطويلة القاسية.

ويلاحظ القارىء مدى اعجاب الكاتبة واعتزازها بالانتاج اليدوي لمعتقلي أنصار، الذي اتخذ اشكالاً متعدّدة مبتكرة من المنحوتات الخشبية والحجرية والرسوم على قطع من قماش الخيام الممزقة في اثناء فورات غضب المعتقل وحرقه احياناً. ووعدت الكاتبة، تقديراً منها لهذا الجهد الانساني الخلّاق ومدى ما عبّر عنه من المعاناة والألم، بأن تضع كتاباً بالشروحات والصور يتناول هذه الاعمال الفنية المعبّرة (ص ١٤٣)؛ كما وعدت، في مكان آخر، بأن تسجّل الازياء والرقصات الشعبية الفلسطينية في كتاب يشكّل جزءاً من مشروع أكبر يشمل التراث الشعبي العربي في مختلف اقطاره. هذا التراث الذي لا بدّ من ان تحتل فيه «أغنية أنصار»، التي ألّفها